

زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ

جَامِعُ الْقُرْآنِ

إذا حملت «المصحف» يمينك، واستقبلته بوجهك، ومضيت تتأق في روضاته اليانعات، سورة سورة، وآية آية، فاعلم أن من بين الذين يدينونك بالشكر والعرفان على هذا الصنيع العظيم، رجل كبير اسمه: «زيد بن ثابت»..!!

وإن وقائع جمع القرآن في مصحف، لا تذكر إلا ويذكر معها هذا الصحابي الجليل..

وحيث تُنثر زهور التكریم على ذكرى المباركين الذين يرجع إليهم فضل جمع القرآن وترتيبه وحفظه، فإن حظ «زيد ابن ثابت» من تلك الزهور، لحظٌ عظيم..



هو أنصاريٌّ من المدينة..

وكانت سنُّه يوم قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم
مهاجرًا، إحدى عشرة سنة، وأسلم الصبي الصغير مع المسلمين
من أهله، وبُورك بدعوة من الرسول له..

وصحبه آبؤه معهم إلى غزوة بدر، لكن الرسول رَدَّه لِصغر
سنِّه وجسمه..

وفي غزوة «أُحُد» ذهب مع جماعة من أتراه إلى الرسول
يحملون إليه ضراعتهم كي يقبلهم في أى مكان من صفوف
المجاهدين..

وكان أهلهم أكثر منهم ضراعة وإلحاحًا ورجاء..

ألقي الرسول على الفرسان الصغار نظرة شاكرة، وبدا كأنه
سيعتذر عن تجنيدهم في هذه الغزوة أيضًا..

لكن أحدهم وهو - رافع بن خديج - تقدم بين يدي رسول
الله صلى الله عليه وسلم، يحمل حربته، ويحركها بيمينه حركات
بارعة، وقال للرسول عليه السلام:

«إني كما ترى رام، أُجيدُ الرَّمى فأذن لي»..

وحيا الرسول هذه البطولة الناشئة، الناضرة، يابتسامة
راضية، ثم أذن له..

وانتفضت عروق أترابه..

وتقدم ثانيهم، وهو «سُمرة بن جُنْدَب»، وراح يُلوّح في أدب
بذراعيه المقتولتين، وقال بعض أهله للرسول:

«إن سُمرة يصرعُ رافعاً»..

وحَيَّاه الرسول يابتسامته الحانية، وأذن له..

كانت سنُّ كل من رافع وسُمرة، قد بلغت الخامسة عشرة، إلى
جانب نموها الجسماني القوي..

وبقى من الأتراب ستة أشبال، منهم زيد بن ثابت، وعبد الله
ابن عمر..

ولقد راحوا يبذلون جهدهم وضراعتهم بالرجاء تارة، وبالدفع
تارة، وباستعراض عضلاتهم تارة..

لكن أعمارهم كانت باكرة، وأجسامهم غضة، فوعدهم
الرسول بالغزوة المقبلة..

وهكذا بدأ زيد مع إخوانه دوره كمقاتل في سبيل الله بدءاً من

غزوة الخندق، سنة خمس من الهجرة..

كانت شخصيته المسلمة المؤمنة تنمو نمواً سريعاً وباهراً، فهو لم يبرع كمجاهد فحسب، بل كمتقف متنوع المزايا أيضاً، فهو يُتابع القرآن حفظاً، ويكتب الوحى لرسوله، ويتفوق فى العلم والحكمة، وحين يبدأ الرسول فى إبلاغ دعوته للعالم الخارجى كله، وإرسال كتبه للملوك الأرض وقياصرتها، يأمر زيدا أن يتعلم بعض لغاتهم فيتعلمها فى وقت وجيز..

وهكذا تألفت شخصية «زيد بن ثابت» وتبوأ فى المجتمع الجديد مكاناً عالياً، وصار موضع احترام المسلمين وتوقيرهم..

يقول «الشَّعبى»:

«ذهب زيد بن ثابت ليركب، فأمسك ابن عباس بالركاب. فقال له زيد: تنحَّ يا بن عم رسول الله.. فأجابه ابن عباس: لا، فهكذا نصنع بعلمائنا»..

ويقول «قَبِيصَة»:

«كان زيد رأساً بالمدينة فى القضاء، والفتوى، والقراءة والفرائض»...

ويقول «ثابت بن عبيد»:

«ما رأيت رجلاً أفكّه في بيته، ولا أوقرَ في مجلسه من زيد»..

ويقول «ابن عباس»:

«لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن زيد ابن ثابت كان من الراسخين في العلم»..
إن هذا الثُّبُوتُ التي يرددها عنه أصحابه لتزيدنا معرفة بالرجل الذي تدّخر له المقادير شرف مهمة من أنبل المهام في تاريخ الإسلام كله.. مُهمّة جمع القرآن.

منذ بدأ الوحي يأخذ طريقه إلى قلب الرسول ليكون من المنذرين، مُستهلاً موكب القرآن والدعوة بهذه الآيات الرائعة..
﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾...

منذ تلك البداية، والوحي يُصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام، ويخفُّ إليه كلما ولى وجهه شطر الله راجياً نوره وهُداه.

وخلال سنوات الرسالة كلها، حيث يفرغ النبي من غزوة
ليبدأ أخرى.. وحيث يُجَبِّط مكيدة وحرباً، ليواجه خصومه
بأخرى، وأخرى. وحيث يبني عالماً جديداً بكل ما تحمله الجدة
من معنى..

كان الوحي يتنزل والرسول يتلو، ويُبلغ، وكان هناك ثلثة
مباركة تحرك حِرْصها على القرآن من أول يوم، فراح بعضهم
يحفظ منه ما استطاع، وراح البعض الآخر ممن يجيدون الكتابة،
يحتفظون بالآيات مسطورة.

وخلال إحدى وعشرين سنة تقريباً، نزل القرآن خلالها آية
آية، أو آيات، تَلَوَ آيات، مُلَبِّياً مناسبات النزول وأسبابها، كان
أولئك الحفظة، والمسجلون، يوالون عملهم في توفيق من الله
كبير..

ولم يجئ القرآن مرة واحدة وجملة واحدة، لأنه ليس كتاباً
مؤلفاً، ولا موضوعاً.

إنما هو دليل «أمة جديدة» تُبنى على الطبيعة، لَبِنَةً لَبِنَةً، ويوماً
يوماً، تنهض عقيدتها، ويتشكل قلبها، وفكرها، وإرادتها وفق
مشيئة إلهية، لا تفرض نفسها من علٍ، وإنما تقود التجربة
البشرية لهذه الأمة في طريق الاقتناع الكامل بهذه المشيئة..

ومن ثمَّ، كان لابد للقرآن أن يجيء مُنَجِّبًا، ومُجَزِّئًا، ليتابع التجربة في سيرها النامي، ومواقفها المتجددة. وأزماتها المتصدِّية^(١).

توافر الحُفَاط، والكتبة، - كما ذكرنا من قبل - على حفظ القرآن وتسجيله، وكان على رأسهم على بن أبي طالب، وأبي ابن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وصاحب الشخصية الجليلة التي نتحدث عنها الآن: «زيد بن ثابت» رضى الله عنهم أجمعين..

وبعد أن تم نزولها، وخلال الفترة الأخيرة من فترات تنزُّله، كان الرسول يقرؤه على المسلمين.. مُرَتَّبًا سورة وآياته.
وبعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - شُغِلَ المسلمون من فَوْرِهِمْ بحروب الردَّة..

وفي معركة اليمامة.. التي تحدثنا عنها من قبل خلال حديثنا عن «خالد بن الوليد» وعن «زيد بن الخطاب» كان عدد الشهداء من قراء القرآن وحفظته كبيرًا ومُثِيرًا.. فما كادت نار

(١) راجع كتابنا - كما نتحدث القرآن.

الرَّدة تخبو وتنطفئ حتى فزع عمر إلى الخليفة «أبي بكر الصديق»
رضى الله عنه راغباً إليه في إلحاح أن يُسارعوا إلى «جمع القرآن»
قبلما يدرك الموت والشهادة بقية القراء والحُفَّاظ.

واستخار الخليفة ربه.. وشاور صحبه.. ثم دعا «زيد
ابن ثابت» وقال له:

«إنك شاب عاقل لا نتهمك»..

وأمره أن يبدأ بجمع القرآن الكريم، مستعيناً بذوى الخبرة في
هذا الموضوع..

ونفض زيد بالعمل الذى توقف عليه مصير الإسلام كله
كدين..!

وأبلى بلاءً عظيماً فى إنجاز أشق المهام وأعظمها، فمضى يجمع
الآيات والسور من صدور الحفاظ، ومن مواطنها المكتوبة،
ويُقابل، ويُعارض، ويتحرى، حتى جمع القرآن مُرتباً ومنسقاً...

ولقد زكى عمله إجماع الصحابة رضى الله عنهم الذين عاشوا
يسمعونه من رسولهم صلى الله عليه وسلم خلال سنوات الرسالة
جميعها، لا سيما العلماء منهم والحفاظ والكتبة..

وقال زيد وهو يُصوِّرُ الصعوبة الكبرى التي شكلتها قداسة المهمة وجلالها...

«والله، لو كلفوني نَقْلَ جَبَلٍ من مكانه، لكان أهونَ عَلَيَّ مما أمروني به من جمع القرآن...!!
أَجَلٌ...

فلأن يحمل زيد فوق كاهله جبلاً، أو جبلاً، أرضى لنفسه من أن يخطئ أدنى خطأ، في نقل آية أو إتمام سورة..
كل هول يصمد له ضميره، ودينه.. إلا خطأ كهذا مهما يكن ضعيفاً وغير مقصود...

ولكن توفيق الله كان معه، وكان معه كذلك وعده القائل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾..

فنجح في مهمته، وأنجز على خير وجه مسئوليته وواجبه.

* * *

كانت هذه هي المرحلة الأولى في جمع القرآن...

يبد أنه جُمع هذه المرة مكتوباً في أكثر من مصحف...

وعلى الرغم من أن مظاهر التفاوت والخلاف بين هذه

المصاحف كانت شكلية، فإن التجربة أكدت لأصحاب الرسول عليه السلام وجوب توحيدها جميعاً في مصحف واحد.

ففى خلافة «عثمان» رضى الله عنه، والمسلمون يواصلون فتوحاتهم وزحوفهم، مبتعدين عن المدينة، مغترين عنها..

فى تلك الأيام، والإسلام يستقبل كل يوم أفواجا تلو أفواج من الداخلين فيه، المبايعين إياه، ظهر جلياً ما يمكن أن يُفضى إليه تعدد المصاحف من خطر حين بدأت الألسنة تختلف على القرآن حتى بين الصحابة الأقدمين والأولين...

هنالك تقدم إلى الخليفة «عثمان» فريق من الأصحاب رضى الله عنهم على رأسهم «حذيفة بن اليمان» مفسرين الضرورة التى تحتم توحيد المصحف...

واستخار الخليفة ربه وشاورَ صحبه..

وكما استنجد «أبو بكر الصديق» من قبل يزيد بن ثابت، استنجد به عثمان أيضاً...

فجمع «زيد» أصحابه وأعوانه، وجاءوا بالمصاحف من بيت حفصة بنت عمر رضى الله عنها، وكانت محفوظة لديها، وباشر «زيد» وصحبه مهمتهم العظيمة الجليلة.

كان كل الذين يعاونون «زيداً» من كُتَّاب الوَحْي، ومن
حَفَظَةُ القرآن...

ومع هذا، فما كانوا يختلفون - وقلَّما كانوا يختلفون -
إلا جعلوا رأى زيد وكلمته هي الحِجَّة والفَيْصَل.

والآن ونحن نقرأ القرآن العظيم مُيسِّراً.. أو نسمعه مُرتلاً..
فإن الصعوبات الهائلة التي عاناها الذين اصطنعهم الله لجمعه
وحفظه لا تخطر لنا على بال..!!

تماماً، مثل الأهوال التي كابدوها، والأرواح التي بذلوها، وهم
يجاهدون في سبيل الله، لِيُقَرُّوا فوق الأرض ديناً قِيَّماً، وليبدِّدوا
ظلامها بنوره المبين..